كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الحمد لله الكائن في العماء الموصوف بالاستواء، جلال ذاته بعد فراغه، من خلق أرضه إلى خلق سماواته، وأنزل القرآن في ليلة القدر وهي الليلة المباركة إلى السماء الدنيا جملة بسوره وآياته، ورحل السيارة في منازل المزج والتخليص وجعل ذلك مما تمدح به من تقديراته، وأسرى بسيدنا محمد عبده ﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى قاب قوسين أو أدنى ليريه من آياته، وأهبط آدم إلى أرض ابتلائه، وأخرجه من جنته دار نعيمه ولذاته، ورفع إدريس عليه السلام من عالم الأكوان إلى أن أنزله المكان العلي في أوسط درجاته، وحمل نبيه نوحاً عليه السلام بين تلاطم أمواج بحر طوفانه في سفينة نجاته.

وهذب بإبراهيم خليله عليه السلام ليمنحه ما شاء من هدايته وكراماته، وأخرج يوسف عليه السلام عن أبيه عليه السلام ثم أتبعه أباه ليصدقه فيما رآه في منامه من أحسن بشاراته.

وأسرى بلوط وأهله لينجيه من نقماته، وأعجل موسى عليه السلام عن قوله لما جاء ربه لميقاته، وألاح له نوراً في صورة نار ليتفرغ إليه فناداه من حاجاته، فسعى إليه فحاباه بمناجاته، وأخرجه فاراً من قومه ليرسله بتكرمته برسالاته، وأسرى بقومه ليغرق من نازع ربه في ربوبيته من طغاته، وأتعبه حين فارق الأدب في علمه في طلب من علمه من لدنه علماً وآتاه رحمة من رحماته.

ثم أتبعه في سفره ليعلمه بما خصه الله من قضاياه وحكوماته، وحمل نبيه موسى عليه السلام في تابوته، وهو لا يعقل في يم هلكاته.

ورفع عيسى عليه السلام إليه لما كان كلمة من كلماته، وأذهب نبيه يونس عليه السلام مغاضباً فضيق عليه في بطن حوت في ظلماته.

وأفضل طالوت بالجنود وفيهم داود عليه السلام ليبتليهم بنهر البلوى ليتمكن من

صاحب غرفاته، وأخرق الآفاق بذي القرنين ليقيم سداً بين الطائعين من عباد الله وبين عصاته.

وأنزل الروح الأمين على قلوب أهل نبواته، وأصعد الكلم الطيب إليه على براق العمل الصالح ليكرمه بمشاهدة ذاته، والصلاة على سيدنا محمد ﷺ خير من تخلق بأسمائه وصفاته، والسلام عليه وعلى آله من أصحابه وقراباته، وأزواجه وبنيه وبناته.

أما بعد فإن الأسفار ثلاثة لا رابع لها أثبتها الحق عز وجل وهي سفر من عنده، وسفر إليه، وسفر فيه، وهذا السفر فيه هو سفر التيه والحيرة فمن سافر من عنده فربحه ما وجد وذلك هو ربحه، ومن سفر فيه لم يربح سوى نفسه، والسفران الأولان لهما غاية يصلون إليها ويحطون عن رحالهم، وسفر التيه لا غاية له، والطريق التي يمشي فيها المسافرون طريقان طريق في البر وطريق في البحر قال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

وهنا نكتة، وهي أنه تعالى ما قدم البر على البحر وتهمم بتقديمه إلا ليعلم أنه من قدر على البر لا يسافر في البحر إلا من ضرورة وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لولا هذه الآية ثم يتلو ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] لضربت بالدرة من سافر في البحر ولو لم يكن في الإشارة إلى ترك السفر إلا قوله في ذلك ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] لكانت هذه الآية كافية ثم تقول وما منها سفر من هذه الثلاثة الأسفار إلا وصاحبه فيه على خطر إلا أن يكون محمولاً كالإسراء فكل من سوفر به نجى وكل من سافر من غير أن يسافر به فهو خطر ثم إنه لما كان الوجود مبدأه على الحركة لم يتمكن أن يكون فيه سكون لأنه لو سكن لعاد إلى أصله وهو العدم فلا يزال السفر أبداً في العالم العلوي والسفلي والحقائق الإلهية كذلك لا تزال في سفر غادية ورائحة وقد جاء النزول الرباني إلى السماء الدنيا وقد جاء الاستواء إلى السماء على ما يعطيه التنزيل ونفي المماثلة والتشبيه.

وأما العالم العلوي فلا تزال الأفلاك دائرة بمن فيها لا تسكن ولو سكنت بطل الكون وتم نظام العالم وانتهى. وسياحة الكواكب في الأفلاك سفر لها والقمر قدرناه منازل وحركات الأركان الأربعة وحركات المولدات في كل دقيقة بالتغيير والاستحالات في كل نفس وسفر الأفكار في محمود ومذموم وسفر الأنفاس من المتنفس وسفر الأبصار في المبصرات يقظة ونوماً وعبورها من عالم إلى عالم بالاعتبار وهذا كله سفر بلا شك عند كل عاقل وقد ذهب بعضهم إلى أن عالم الأجسام من وقت خلقه الله لم يزل بجملته نازلاً ولا يزال في الخلأ

الذي لا نهاية له وعلى الحقيقة فلا نزال في سفر أبداً من وقت نشأتنا ونشأة أصولنا إلى ما لا نهاية له وإذا لاح لك منزل نقول فيه هذا هو الغاية انفتح عليك منه طرائق أخر تزودت منه وانصرفت فما من منزل تشرف عليه إلا ويمكن أن تقول هو غايتي ثم إنك إذا وصلت إليه لم تلبث أن تخرج عنه راحلاً وكم سافرت في أطوار المخلوقات إلى أن تكونت دماً في أبيك وأمك ثم اجتمعا من أجلك عن قصد لظهورك أو غير قصد فانتقلت منياً ثم انتقلت من تلك الصورة علقة إلى مضغة إلى عظم ثم كسى العظم الحمائم انشأت نشأة أخرى ثم أخرجت إلى الدنيا فانتقلت إلى الطفولة ومن الطفولة إلى الصبا ومن الصبا إلى الشباب ومن الشباب إلى الفتوة ومن الفتوة إلى الكهولة ومن الكهولة إلى الشيخوخة ومن الشيخوخة إلى الهرم وهو أرذل العمر ومنه إلى البرزخ فسافرت في البرزخ إلى الحشر ثم من الحشر أحدثت سفراً إلى الصراط إما إلى جنة وإما إلى نار إن كنت من أهلها وإن لم تكن من أهلها سافرت من النار إلى الجنة ومن الجنة إلى كثيب الروية فلا تزال تردد بين الجنة والكثيب دائماً أبداً وفي النار لا يزالون مسافرين من صعود إلى هبوط ومن هبوط إلى صعود مثل قطع اللحم في القدر على النار ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] فما ثم سكون أصلاً بل الحركة دائمة في الدنيا ليلاً ونهاراً ويتعاقبان فيتعاقب الأفكار والحالات والهيئات بتعاقبهما وتعاقب الحقائق الإلهية عليهما فتارة تنزل على الاسم الإلهي الرحيم وتارة على الاسم التواب وتارة على الغفار وتارة على الرزاق وعلى الوهاب وعلى المنتقم وكل اسم للحضرة الإلهية وهي أيضاً تنزل عليك بما عندها من الوهب والرزق والانتقام والتوبة والمغفرة والرحمة فنزول منك عليها بالطلب ونزول منها عليك بالعطاء فإذا كان الأمر على هذا فيرجع العبد تفكره ينظر في الفرقان بين السفر الذي كلف أن يستعد له وفيه سعادته أعني في الاستعداد وهو السفر إليه والسفر فيه والسفر من عنده وهذه الأسفار كلها مشروعة له وبين السفر الذي ما كلف أن يستعد له كالمشي في الأرض في المباح والسفر في تجارة الدنيا لتثمير المال وأمثال ذلك وكفر نفسه بالدخول والخروج فإنه من وجه غير مكلف به ولا مشروع وإنما تقتضيه النشأة نسأل الله جميل العاقبة والعافية.

ثم إن المسافرين من عنده على ثلاثة أقسام مسافر مطرود كإبليس وكل مشرك، ومسافر غير مطرود لكنه سفر خجل كسفر العصاة لأنهم لا يقدرون على الإقامة في الحضرة مع المخالفة للحياء الذي غلب عليهم، وسفر اجتباء واصطفاء كسفر المرسلين من عنده إلى خلقه ورجوع الوارثين العارفين من المشاهدة إلى عالم النفوس بالملك والتدبير والناموس والسياسة.

ثم المسافرون إليه أيضاً ثلاثة مسافر أشرك به وجسمه وشبهه ومثله ونسب إليه ما

يستحيل عليه إذ قال عن نفسه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فهذا المسافر يصل إلى الحجاب لا يراه أبداً طريداً عن الرحمة، ومسافر نزهه عن كل ما لا يليق به بل يستحيل عليه مما جاء في المتشابه في كتابه ثم يقول في آخر تنزيهه والله أعلم بما قاله في كتابه ثم لم يزل فيما عدا الشرك والتشبيه خالصاً في المخالفات فهذا إذا وصل وصل إلى العتاب لا إلى الحجاب ولا إلى عذاب مؤبداً فهذا يتلقاه الشافعون ينتظرونه على الباب فينزلونه عليه خير منزل لكنه يعتب في عدم الاحترام ومسافر معصوم ومحفوظ قد بسطهما الأنس والدلال يخاف الناس ولا يخافون ويحزن الناس ولا يحزنون لأنهم من الخوف والحزن انتقلوا ومن انتقل من شيء من المحال أن يحط فيه ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وهي البشرى التي لهم في الآخرة فهؤلاء هم المسافرون إليه.

وأما المسافرون فيه فطائفتان طائفة سافرت فيه بأفكارها وعقولها فضلت عن الطريق ولا بد فإنهم ما لهم دليل في زعمهم يدل بهم سوى فكرهم وهم الفلاسفة ومن نحا نحوهم، وطائفة سوفر بها فيه وهم الرسل والأنبياء، والمصطفون من الأولياء كالمحققين من رجال الصوفية مثل سهل بن عبد الله وأبي يزيد وفرقد السبخي والجنيد بن محمد والحسن البصري ومن شهر منهم ممن يعرفه الناس إلى زماننا هذا غير أن الزمان اليوم ليس هو كالزمان الماضي وسبب ذلك قربه من الدار الآخرة فكثر الكشف في أهله اليوم وصارت لوائح الأرواح تبدو وتظهر فأهل زماننا اليوم أسرع كشفاً وأكثر شهوداً واغزر معرفة وأتم في الحقائق وأقل عملاً من الزمان المتقدم فإنهم كانوا أكثر عملاً وأقل فتحاً وكشفاً منا اليوم وذلك لأنهم أبعد الأزمان الصحابة لشهود النبي ﷺ ونزول الأرواح عليه فيما بينهم مع الأنفاس كان المنورون منهم عندهم هذا وكانوا قليلين جداً مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وأمثالهم فالعمل فيما مضى كان أغلب والعلم في وقتنا هذا أغلب والأمر في مزيد إلى نزول عيسى عليه السلام فإنه يكثر والركعة اليوم منا كعبادة شخص ممن تقدم عمره كله كما قال ﷺ «للعامل منهم أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم» وما أحسنها من عبارة وألطفها من إشارة وهذا مما ذكرناه من الاقتراب اقتراب الزمان وظهور حكم البرزخ ألا ترى إلى قوله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى يكلم الرجل فخذه بما فعل أهله وعذبة سوطه وتقول الشجرة هذا يهودي خلفي اقتله» وهذا في الدنيا فهل هذا إلا من ظهور أمر الآخرة التي هي الدار الحيوان فالعلم واحد منتشر يستدعي حملة فمهما كثر حاملوه بما هم فيه من الصلاح لأنه علم الصالحين قسم عليهم ولهذا قل فيمن تقدم ومن كان عنده منه شيء لم يظهر عليه لأنه غالب عليه ومهما قل حاملوه بما هم في العامة من الفساد حصل

للصالح منهم موفوراً لأن عنده نصيب كل مفسد فإنه وارثه فلهذا كثر العلم والفتح والكشف في المتأخرين ومن كان عنده منه شيء ظهر عليه لأن علمه غالب عليه لكثرته فسبحان واهب الكل، ولكن مع هذا كله فالآخر في ميزان الأول ولا بد إذا كان تابعاً له مقتدياً به ولكن من حيث الوزن وهو العمل لا من حيث العلم بالله فإن العلم بالله لا بد فيه من الميزان ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٤].

ونحن إن شاء الله نذكر في هذه العجالة من الأسفار التي وقفنا عليها علماً وعيناً وهي التي وقعت للأنبياء عليهم السلام والأسفار الإلهية وسفر المعاني في معرض التنبيه على ما يبقى من الأسفار فإن الله قد ذكر في القرآن العزيز أسفاراً كثيرة عن أصناف من المخلوقات فاقتصرنا على هذا القدر.

فمن ذلك سفر رباني من العماء إلى عرش الاستواء الذي تسلمه الاسم الرحمن

ورد خبر وهو أن بعض الناس قال لرسول الله ﷺ أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق أو كما قال، فقال ﷺ «في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء» فقد تكون لفظة ما هنا نافية وقد تكون بمعنى الذي.

اعلم أن هذا سرادق الألوهية وحاجز عظيم يمنع الكون أن يتصل بالألوهية وتمنع الألوهية أن تتصل بالكون أعني في الحدود الذاتية ومن هذا العما يقول الله تعالى ما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ ما ترددت في شيء أنا فاعلمه ترددي في قبض نسمة المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له من لقائي وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩] وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] يعني في يوم الفصل والقضاء وما أشبه هذا النوع مما ورد في الأخبار فهذا من جانب الألوهية لما أرادت الوصول إلى الكون.

وأما ما ورد في هذا الفن عن الكون لما أراد الاتصال بالألوهية قوله ﷺ «لا أحصي ثناء عليك» وقوله «أو استأثرت به في علم غيبك»، وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه العجز عن إدراك الإدراك إدراك فلما أوجد دائرة الكون المحيطة المعبر عنها بالعرش الذي هو السرير الأقدس فلا بد من ملك لهذا السرير وهو يريد الإيجاد والإيجاد يمده جود الوجود الإلهي ولا بد فلا بد من الرحمانية أن تكون الحاكمة في هذا الفصل فاستوى عليه الاسم الرحمٰن في سرادق العما الذي ليق بالرحمانية الإلهية وهو نوع من العما الرباني وكان سفر الرحمانية من العما الرباني إلى الاستواء العرشي موجوداً عن الجود وما دون العرش موجود

عن المستوى على العرش وهو الاسم الرحمٰن الذي وسعت رحمته كل شيء وجوباً ومنه ولما سافر هذا الاسم الرحمٰن سافرت معه جميع الأسماء المتعلقة بالكون فإنها وزعته وسدنته وأمراؤه كالرزاق والاسم المغيث والاسم المحيي والاسم المميت والاسم الضار والاسم النافع وجميع أسماء الأفعال خاصة فإن كل اسم لا يعرف إلا من فعل من أسماء الأفعال وهو ممن سافر مع الاسم الرحمٰن وكل اسم لا يعرف من فعل فليس له في هذا السفر مدخل البتة، فإذا أرادت أن تسافر في معرفة ما عدا أسماء الأفعال بأفكارها خرجت عن كرة العرش خروجاً غير مبائن ولا منفصل وأرادت التعلق بالجانب الأقدس الإلهي فوقعت في الحمى وهو سرادق العما فتخبطت فيه لكن لا بد للواصل أن يلوح له من بوارق الألوهية ما تحصل له به معرفة ما ولهذا سماه الصديق بالإدراك وسماه الصادق ﷺ «لا أحصي ثناء عليك» وذلك لما عاين ما لا يقبل ثناء معيناً لكن يقبل الثناء المجهول وهو لا أحصي ثناء عليك فإن الحيرة تقتضي ذلك ولا بد وأصحاب الفكر في عما وأصحاب الكشف في عما والكل في عما لأن الكل في عما والكل على صورة الكل وهذا السفر روحه ومعناه السفر من التنزيه إلى سدرة التشبيه من أجل إفهام المخاطبين وهذا أيضاً من العما عينه.

سفر الخلق والأمر وهو سفر الإبداع

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١١ ـ ١٢] بالفتق والرتق ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وجاء بكلمة ثم بعد خلق الأرض تؤذن غالباً بأن الثاني بعد الأول بمهلة وهو زمان خلق الأرض وتقدير أقواتها في أربعة أيام من أيام الشأن يومان لشانها في عينها وذاتها ويوم لظهورها وشهادتها ويوم لبطونها وغيبتها ويومان لما أودع فيها من الأقوات الغيبية والشهادية في يومين.

ثم كان الاستواء الأقدس الذي هو المقصود والتوجه إلى فتق السموات وفطرها فلما قضاهن سبع سموات في يومين من أيام الشأن أوحى في كل سماء أمرها فأودع فيها جميع ما تحتاج إليه المولدات من الأمور في تركيبها وتحليلها وتبديلها وتغييرها وانتقالها من حال إلى حال بالأدوار والأطوار وهذا من الأمر الإلهي المودع في السموات في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] من الروحانيات العلية فبرز بالتحريكات الفلكية ليظهر التكوين في الأركان بحسب الأمر الذي يكون في تلك الحركة وفي ذلك الفلك فلما فتقها من رتقها ودارت وكانت شفافة في ذاتها وجرمها حتى لا تكون ستراً لما وراءها أدركنا بالأبصار ما في

الفلك الثامن من مصابيح النجوم فيتخيل أنها في السماء الدنيا والله يقول ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢] ولا يلزم من زينة الشيء أن يكون فيه.

وأما قوله وحفظاً فهي الرجوم التي تحدث في كرة الأثير لإحراق الذين يسترقون السمع من الشياطين فجعل الله لذلك شهاباً رصداً وهي الكواكب ذوات الأذناب ويخترق البصر الجو حتى يصل إلى السماء الدنيا فلا يرى من فطور فينفذ فيه فينقلب خاسئاً وهو حسير أي قد أعيّ وجعل في كل سماء من هذه السبعة كوكباً سابحاً وهو قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] فتحدث الأفلاك بحركات الكواكب لا السموات فتشهد الحركات من السبعة السيارة أن المصابيح في الفلك الثامن وزينا السماء الدنيا لأن البصر لا يدركها إلا فيها فوقع الخطاب بحسب ما تعطيه الرؤية لهذا قال ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [فصلت: ١٢] ولم يقل خلقناها فيها وليس من شرط الزينة أن تكون في ذات المزين بها ولا بد فإن الرجل والخيل من زينة السلطان وما هم قائمان بذاته ولما كملت البنية الإنسانية وصحت التسوية وكان التوجه الإلهي بالنفخ العلوي في حركة الفلك الرابع من السبعة وقبل هذا المسمى الذي هو الإنسان لكمال تسويته السر الإلهي الذي لم يقبله غيره وبهذا صح له المقامات مقام الصورة ومقام الخلافة.

فلما كملت الأرض البدنية وقدر فيها أقواتها وحصل فيها قواها الخاصة بها من كونها حيواناً نباتاً كالقوة الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة والنامية المغذية وفتقت طبقاتها السبعة من جلد ولحم وشحم وعرق وعصب وعضل وعظم استوى السر الإلهي الساري فيه منفخ النفخ الروحي إلى العالم العلوي من البدن وهو بخارات تصعد كالدخان ففتق فيها سبع سموات السماء الدنيا وهي الخنس وزينها بالنجوم والمصابيح مثل العينين وسماء الخيال وسماء الفكر وسماء العقل وسماء الذكر وسماء الحفظ وسماء الوهم.

وأوحى في كل سماء أمرها وهو ما أودع في الحس من إدراك المحسوسات ولا نتعرض للكيفية في ذلك للخلاف الواقع فيها وإن كنا نعلم ذلك فإن علمنا لا يرفع الخلاف من العالم وفي الخيال من متخيلات المستحيلات وفي العقل من المعقولات وهكذا في كل سماء ما يشاكلها من جنسها فإن أهل كل سماء مخلوقون منها فهم بحسب مزاج أماكنهم وخلق في كل سماء من هذه السبعة كوكباً سابحاً في مقابلة الكواكب السيارة تسمى صفات وهي الحياة والسمع والبصر والقدرة والإرادة والعلم والكلام كل يجري إلى أجل مسمى فلا تدرك قوة إلا ما خلقت له خاصة فالبصر لا يرى سوى المحسوسات المبصرات والحس فينقلب خاسئاً فإنه لا يجد قطراً ينفذ فيه والعقل يثبت هذا كله يشهد بذلك الحركات الفلكية التي في الإنسان وذلك بتقدير العزيز العليم، فهذا سفر أسفر عن محياه ودل على تنزيه مولاه

ونتج ظهور العالم العلوي فإن السفر إنما سمي سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال معناه أنه يظهر ما ينطوي عليه كل إنسان من الأخلاق المذمومة والمحمودة يقال سفرت المرأة عن وجهها إذا أزالت برقعها الذي يستر وجهها فبان للبصر ما هي عليه الصور من الحسن والقبح قال الله تعالى يخاطب العرب ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٣٤] معناه أظهر إلى الأبصار ومبصراتها قال الشاعر.

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

فإن العرب جرت عادتهم أن المرأة إذا أرادت أن تعلم أن وراءها شراً أسفرت عن وجهها وكان هذا القائل قد أعمل الحيلة في الوصول إلى محبوبته فشعر قومها به وعرفت المرأة بشعورهم فعندما بصرت به سفرت عن وجهها فعلم أن وراءها الشر فخاف عليها وانصرف وهو ينشد.

فقد رابني منها الغداة سفورها وما مثل هذا السفر ينزل ربنا

وإشباهه وقد أغنت الإشارة عن البسط والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سفر القرآن العزيز

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١] السورة بكمالها وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] هذا إنزال إنذار قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١] يعني القرآن العزيز في ليلة القدر قال أهل التفسير نقلاً، نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا ثم نزل منها على قلب محمد ﷺ نجوماً وهذا سفر لا يزال أبداً ما دام متلواً بالألسنة سراً وعلانية وليلة القدر الباقية على الحقيقة في حق العبد هي نفسه إذا صفت وزكت ولهذا قال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ٤] وكذلك النفس خلق فيها كل أمر حكيم فألهمها فجورها على المعنيين وتقواها كذلك وقلبه في الاعتبار السماء الدنيا التي نزل إليها القرآن مجموعاً فعاد فرقانا بحسب المخاطبين فليس حظ البصر منه حظ السمع وإنما قلنا نزل إلى قلبك دفعة واحدة فلسنا نعني أنك حفظته ووعيته فإن كلامنا إنما هو روحاني معنوي وإنما أعني أنه عندك ولا تعلم فإنه ليس من شرط السماء لمانزل إليها القرآن أن تحفظ نصه.

ثم إنه ينزل عليك نجوماً منك بكشف غطائك عنك وقد رأيت ذلك من نفسي في بدء أمري ورأيت هذا لشيخي أبي العباس العريني من غرب الأندلس من أهل العليا وسمعت ذلك عن جماعة من أهل طريقنا أنهم يحفظون القرآن أو آيات منه من غير تعليم معلم بالتعلم المعتاد ولكن يجده في قلبه ينطق بلغته العربية المكتوبة في المصاحف، إن كان أعجمياً روينا عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله قال عنه أبو موسى الديبلي أنه ما مات حتى استظهرا القرآن

من غير تلقين ملقن معتاد فأما كونه لا يزال ينزل على قلوب العباد لما قام الدليل على استحالة إقامة العرض زمانين وقام الدليل على استحالة انتقاله من محل إلى محل وإن حفظ زيد لا ينتقل إلى عمرو فعندما تسمع الأذن الملقن يلقي الآية عليها أنزلها الله على قلبه فوعاها فإن كان القلب في شغل عاد الملقن فعاد الإنزال فالقرآن لا يزال منزلاً أبداً فلو قال إنسان أنزل الله على القرآن لم يكذب فإن القرآن لا يزال يسافر إلى قلوب الحافظين له.

وما كون النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالقرآن بادر بقراءته قبل أن يقضي إليه وحيه وذلك لقوة كشفه فإنه كان يكشف على ما جاء به جبريل عليه السلام فيتلوه وتعجل به لسانه قبل أن يقضي إليه وحيه كما يكشف المكاشف عند ما يخطر لك في قلبك ويتكلم على خاطرك وهذا غير منكور عند أكثر الناس فذاك المحل به أليق لكن أدبه ربه فأحسن أدبه فقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] فأمره أن يتأدب مع جبريل عليه السلام إذ هو معلمه الكلم الطيب بالعمل الصالح.

فصل

الإنسان الكلي على الحقيقة هو القرآن العزيز نزل من حضرة نفسه إلى حضرة موحده وهي الليلة المباركة لكونها غيباً والسماء الدنيا حجاب العزة الأحمى الأدنى إليه ثم جعل هناك فرقاناً ينزل نجوماً بحسب الحقائق الإلهية فإنها تعطي أحكامها مختلفة فيعرف الإنسان لذلك فلا يزال على قلبه من ربه نجوماً حتى يجتمع هناك ويترك الحجاب وراءه فيزول عن الأين والكون ويغيب عن الغيب فالقرآن المنزل حق كما سماه الله حقاً ولكل حق حقيقة وحقيقة القرآن الإنسان كما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ فقالت كان خلقه القرآن قال العلماء أرادت قوله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] فحقق هذا السفر تحمد عاقبته... الآيات.

سفر [...][1] الرؤية الله تعالى والاعتبار من

وقول الله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ﴾ [الإسراء: ١].

سبحان من أسرى إليه بعبده ... ليرى الذي أخفاه من آياته
كحضوره في غيبه وكسكره ... في صحوه والمحو في إثباته
ويرى الذي عنه تكون سره ... في منعه إن شاءه وهباته
ويزيل ما أبدا له من جوده ... بوجوده والفقد من هياته

(١) خرم في الأصل.

سبحانه من سيد ومهيمن   في ذاته وسماته وصفاته

قرن سبحانه التسبيح بهذا السفر الذي هو الإسراء ينفي بذلك عن قلب صاحب الوهم ومن تحكم عليه خياله من أهل الشبه والتجسيم ما يتخيله في حق الحق من الجهة والحد والمكان فلهذا قال: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] فجعله مسافراً به ﷺ يعلم أن الأمر من عنده عز وجل هبة آلهية وعناية سبقت له مما لم يخطر بسره ولا اختلج في ضميره وجعله ليلاً تمكيناً لاختصاصه بمقام المحبة لأنه اتخذه حبيباً وأكده بقوله ليلاً مع أن الإسراء لا يكون في اللسان إلا ليلاً لا نهاراً لرفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسرى بروحه ويزيل بذلك من خاطر من يعتقد من الناس أن الإسراء ربما يكون نهاراً فإن القرآن وإن كان نزل بلسان العرب فإنه خاطب به الناس أجمعين أصحاب اللسان وغيرهم والليل أحب زمان للمحبين لجمعهما فيه والخلوة بالحبيب متحققة بالليل ولتكون رؤية الآيات بالأنوار الإلهية خارجة عن العادة عند العرب بما لم تكن تعرفها فإن البصر لا يدرك شيئاً من المرئيات بنوره خاصة إلا الظلمة والنور الذي به يكشف الأشياء إذا كان حيث لا تغلب قوة نور البصر فإذا غلب حكمه مع نور البصر حكم الظلمة لا يرى سواه إذ كان البصر لا يدرك في الظلمة الشديدة سوى الظلمة فالبصر يرى بالنور المعتدل النور وما يظهر له النور من الأشياء المدكرة ولا فائدة عند السامع لو كان العروج به نهاراً في رؤية الآيات فإنه معلوم له فلهذا كان ليلاً.

وأتى أيضاً بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] ليحقق أن الإسراء كان بجسده الشريف ﷺ فإن قوله أسرى يغني عن ذكر الليل قليلاً في موضع الحال من عبده كما قال.

يا راحلين إلى المختار من مضر   زرتم جسوماً وزرنا نحن أرواحاً

وأدخل الباء في قوله بعبده لأمرين في نظر المحققين من أهل الله الأمر الواحد من أجل المناسبة بين العبودية التي هي الذلة وبين حرف الخفض والكسر فإن كل ذليل منكسر وأضافه إلى الهو ولم يكن منها اسم ظاهر للحق إلا من الأسماء النواقص التي لا تتم إلا بصلة وعائد فأسرى بعبده صلته والعائد إليه المضمر غيب بلا شك وهو هنا مضمر فهو غيب في غيب فكأنه هو الهو كما يقول غيب الغيب فانبأ بشرف الإسراء.

وكذلك ذكر المسجدين الحرام والأقصى وهذا يناسب ما ذكرناه من باب العبد وحرف الخفض هي الباء والمسجد مفعل موضع سجود الرجل والسجود عبودية والحرام يقتضي المنع والحجر فهو يطلب العبودية والأقصى يقتضي البعد والعبودية في غاية البعد من صفات الربوبية فاختار سبحانه لنبيه الشرف الكامل بهذين الأمرين بأعلى ما يكون من صفات الخلق وليس إلا العبودية وما يشاكلها من حروف الخفض والمساجد والحرام والأقصى وكذلك مما

شرفه به في مقابلة هذه العبودية الكلية التي تعطي المعرفة التامة بأنه ما جعل له من أسمائه ما يقيده به لأن هذه العبودية المذكورة ههنا لا تقتضي تقييداً باسم إلهي من أسماء التأثير ولكن يطلب من الألوهة ما يشاكلها في الرفعة والتنزيه فإن العبد إذا رفع من جميع الوجود وأكرم نزهت عبوديته عن الصفات السيادية الربانية الإلهية فهو تنزيهها وإذا وصفت بأوصاف الربوبية شبهت وفي التشبيه هلاكها قال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩].

وقال كذلك ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: ٣٥] فكذلك الألوهة إذا كنى عنها في حق العبد بالأسماء التي تطلب وجود الخلق فليس ذلك بعلو ولا رفعة في حق العبد المخاطب بتلك الأسماء فإن فيها ضرباً مشابهاً بما تقتضيه العبودية من الافتقار إلى الأثر فكما في العبودية في هذا الإسراء حقها من جميع الوجوه كذلك وفي الألوهية حق ما يقتضي هذا الوفاء المنسوب إلى العبد فأتى بالهو وبهو الهو الذي هو غيب الغيب فلما نزل ﷺ من عبوديته إلى ما ذكرناه أسرى به إلى غيب الغيب الذي ذكرناه فمن هناك شاهد حيثية الحق أحداً فرداً فإن المحبة تقتضي الغيرة فلا يبقى للعبد أثر فإن العبد قادر وما عليه تحجير فما ظهر هنالك أصلاً اسم سوى هذا الهو ولما كان الوحي كان مسامرة لكونه ليلاً وأعلى مجالس الحديث المسامرة لأنها خلوة في خلوة وموضع إدلال وتقريب مصطفى وأما الآيات التي رآها فمنها في الآفاق ومنها في نفسه قال عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣] وقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١] وقاب قوسين من آيات الآفاق حقق به مقام العبد من سيده وأدنى مقام المحبة والاختصاص بالهو ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠] مقام المسامرة وهو هو الهو غيب الغيب وأيده ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] والفؤاد قلب القلب وللقلب رؤية وللفؤاد رؤية فرؤية القلب يدركها العمى إذا صدرت عن الحق بإيثار غيره بعد تقريبه إياها ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] والفؤاد لا يعمى لأنه لا يعرف الكون وماله تعلق إلا بسيده ولا يتعلق من سيده إلا بغيب الغيب وهو هو الهو لمناسبة المقامات والمراتب ولهذا قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١]فإنه قد يغلط البصر كثيراً وإن كان هذا عين الجهل من قائله فإنه لا يغلط إلا الحاكم لا ما يدركه الحواس فالذي يقول يغلط البصر لكونه يرى الأمر على خلاف ما هو عليه فيكذبه صاحبه فنفى عنه هذه الصفة لأن الكذب إنما يقع في عالم التشبيه والكثرة وهنا ليس ثم تشبيه أصلاً فإن العبد هنا عبد من جميع الوجوه فنره مطلق التنزيه في العبودية وكذلك غيب الغيب الذي هو هو الهو والآيات التي رآها في نفسه مشاكلته لهو الهوا بعبودية في غيب الغيب لعين قلب القلب الذي هو الفؤاد وما كان أحد يراها وآيات الآفاق ما ذكره عليه السلام مما رأى في النجوم والسموات والمعارج العلى والرفرف الأدنى وصريف الأقلام

والمستوى وما غشى الله به سدرة المنتهى وهذا كله حول هذا المقام المخصص بالعبد الذي أقيم فيه في غيب الغيب وقد نبه على هذا بقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] ولم يذكر بركة المقام لأنه فوق الذكر لعدم التشبيه وهو مقام يتخطف الناس منه لعزته والمسجد الحرام للمسجد الأقصى كالجنة مع النار حفت الجنة بالمكاره أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حوله وحفت النار بالشهوات إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله فبطن لظهر وظهر لبطن وينتج هذا السفر مشاهدة ما ذكرناه من غيب الغيب والكلام في هذا المقام يطول فنقبض العنان ويكفي هذا القدر من الإشارة التي أوردناها فيه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سفر الابتلاء وهو سفر الهبوط من علو إلى سفل ومن قرب إلى بعد فيما يظهر وكأنه مناقض للسفر الذي تقدمه وفيه ما فيه وإن لم يقو قوته

قال الله عز وجل يخاطب آدم وحوا ومن نزل معهما ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٣٨] وقد تكلمنا على سفر الأب الأول في الروحانيات وهو أبو آدم وأبو العالم وهو حقيقة محمد ﷺ وروحه فلنتكلم على سفر الأب الجسمي وهو أبو محمد ﷺ وأبو بني آدم كلهم خاصة فكل واحد منهما أب وابن لصاحبه من هذا الوجه، فاعلم وفقنا الله وإياك أن الله تعالى إذا أراد أن يحدث أمراً أشار إليه بعلامات لمن فهمها يتقدم على وجود الشيء تسمى مقدمات الكون يشعر بها أهل الشعور وكثيراً ما يطرأ هذا في الوجود في عالم الشهادة ولا سيما إذا ظهر في موضع ما لا يليق بذلك الموضع فإنه يخاف من ظهور ما يناسب ما ظهر وهذه الطيرة عند العرب والفال فما كان مما تحمده النفس كان فالا وما كان مما يكرهونه كان عندهم طيرة ولهذا أحب الشارع ﷺ الفال وهو الكلمة الحسنة وكره الطيرة أي كره أن يتطير بشيء والفال عند العرب خير والطيرة شر ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ولا فاعل إلا الله وهو ﷺ يكره أن يتطير بما يجريه الله من المقدور فإن كراهة ذلك عدم احترام الألوهية والأولى أن يتلقى ما لا يوافق الغرض منهما بالحمد والتبليم والرضا والانقياد ورؤية ما دفع الله مما هو أعظم من الذي نزل كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في مثل هذا ما أصابني الله تعالى بمصيبة إلا رأيت أن لله علي فيها ثلاث نعم إحدى ذلك كونها لم تكن في ديني، الثانية كونها كانت ولم يكن ما هو أعظم منها، الثالثة ما لي فيها من الأجر وحط الخطايا فانظر إلى حضوره وحسن نظره فيما يبتليه الله به رضي الله عنه.

ولما كان الأمر هكذا جارياً عرفناه بحكم العادة والتجربة ولم يتقدم لآدم عليه السلام

عادة ولا تجربة لهذا الفن فلم يتفطن آدم عليه السلام كتحجير الله عليه الأكل من الشجرة وموطن الجنة لا يقتضي التحجير فإنه يأكل منها فيها ما يشاء ويتبوأ منها حيث يشاء فلما وقع التحجير في موطن لا يقتضي ذلك عرفنا أنه لا بد أن تظهر حقيقة ذلك الأثر وأنه يستنزل من عالم السعة والراحة إلى عالم الضيق والتكليف ولو عرفها آدم ما تهنأ زمان مقامه في الجنة ومن جملة ما نسب آدم إلى نفسه من الظلم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] حيث لم يتفطن لإشارتك بالتحجير والمنع في موطن التسريح والإباحة ولهذا نهى ولم يؤمر أمر إيجاب وكان حاملاً للمخالف من ولده في ظهره والطائع فاوقع المخالفة عن حركة المخالف فلما رماه من صلبه ما بلغنا أن آدم عليه السلام عصى ربه بعد ذلك أبداً وأفرد بالمعصية دون أهله في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١] والنهي وقع عليهما والفعل وقع عنهما لأنها جزء منه فكأنها مأثم إلا هو ولأنه أقرب إلى الذكرى من حواء فنسي والمرأة أنسى من الرجل ولهذا قامت المرأتان في الشهادة مقام الرجل الواحد لأن الله تعالى يقول: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وذلك لأن المرأة شق من الرجل فامرأتان شقان وشقان نشأة كاملة فامرأتان رجل واحد فهي ناقصة الخلق معوجة في النشيء لأنها ضلع فأهدرت من اللفظ ولم تذكر وذكر آدم عليه السلام لنقيض ما ذكرناه في حواء ونسيان آدم عليه السلام إنما كان لما أخبره الله تعالى به من عداوة إبليس وما تخيل آدم عليه السلام أن أحداً يقسم بالله كاذباً فلما أقسم بالله أنه ناصح لهما فيما ذكره لهما تناولاً من الشجرة المنهي عنها وفي هذا تنبيه في أن الاجتهاد لا يسوغ مع وجود النص في المسألة وفي عداوة إبليس لحواء بشرى لها بالسعادة لأنها لو كانت من حزب الشيطان ما كان عدواً لها والذم تعلق بصورة الكسب لا بالفاعل المكتسب ولو تعلق الذم بالمكتسب لبغضنا العصاة ونحن إنما نكره منهم المعصية ولا تزال المعصية مكروهة أعني معصية الله وكذلك أيضاً لا تقع الكراهة منا على السبب المعصي به فإنه قد ينسخ تحريمه ويرجع حلالاً فتزول الكراهة فلو تعلق الذم به لعينه لم يزل مذموماً فتعلق الذم إنما هو لأمر دقيق خفي إضافي يكاد لا يثبت وكذلك الحمد فافهم، وتفطنت المعتزلة لسر في هذه المسألة فانتبهت له الأشاعرة وهو سر دقيق حسن فحقق النظر فيه تجد الذي عثرت عليه المعتزلة.

ثم نرجع ونقول فلما وقع ما وقع من آدم وحوا اهبطا إلى الأرض فهذا سفر في الظاهر من عنده وكذلك سفر إبليس من عنده فوجد إبليس في سفره الملك والراحة التي يؤل بها إلى الشقاء الدائم ووجد آدم المشقة والتعب والتكليف الذي يؤل به إلى السعادة وكان من علو سفره هذا أنه سافر من شهوة نفسه إلى معرفة عبوديته فإن الجنة لمجرد الشهوات لهذا

قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] وأكمل له هنا لباسه فإنه كان في الجنة صاحب لباس واحد وهو الريش ولم يعرف طعماً للباس التقوى لأن الجنة ليست بمحل للتقوى لأنها نعيم كلها والتقوى يطلب ما يتقي منه فأذن فلا يكون في الجنة.

ولما لم يكن عنده عليه السلام لباس التقوى ووقع النهي لم يكن له علم بما يتقيه إذ التقوى من صفات هذه الدار وما عدا الجنة فلما نزل من الجنة أنزل عليه لباس سر النشأة ولباس التقوى ثم نهى وأمر وكلف فلم يتصور منه بعد ذلك مخالفة حماية هذا اللباس فصار نزوله إلى هذه الدار من تمام نشأته ومرتبته ثم رحلته إلى الجنة من كمال مرتبته ونفسه والدنيا دار تمام والآخرة دار كمال وليس بعد الكمال مطلب فما بعد الدار من دار أصلاً فأقام آدم عليه السلام في سفره هذا يقتني المعارف الكسبية من جهة التكليف التي لم يكن يحصل له دون التكليف وهذا إن الدنيا دار تمام للعبد واقتناء المعارف الفكرية التي لا تعطيها إلا الدنيا فإن نشأة الجنة كشف كلها واحد يقتني معارفة التدبير والتفصيل والحسن والأحسن والأولى والأحرى ومعرفة الترتيب ابتداء وهذا لا يكون إلا في الدنيا من أجل كثافة النشأة والبخارات المانعة من الكشف فيحتاج إلى قوة لا يكون له إلا بوجود هذه الموانع ولولاها لم تعطه فهذا من تمامه ولهذا قال سهل بن عبد الله ليس للعقل فائدة في الإنسان إلا ليدفع به الإنسان سلطان شهوته خاصة وإذا غلبت الشهوة بقي العقل لا حكم له.

ومما يؤيد ما ذكره سهل ما أطلعنا الله تعالى عليه عند كشف الأسرار فأرانا في أسرارنا بإلهامه الأنزه أن الملائكة في المعارف خلقت وكذلك الجمادات والنباتات والحيوان خلق في المعارف والشهوة ولهذا هو مع معرفته وشفقته من الساعة لا يرجع عن شهوته وشفقته من أجل ما يصير إليه مع ما نراه من المخالفة منا، رأى بعضهم رجلاً يضرب رأس حمار له فنهاه عن ذلك فقال له الحمار دعه فإنه على رأسه يضرب والإنسان خلق في المعارف الضرورية والشهوة والعقل فبعقله يرد شهوته ومما اقتناه آدم عليه السلام في معصيته وسفره من أسماء ربه ومن آثارها ومشاهدتها التي لم تكن قبل ذلك يعرفه وهو الغافر المغفرة وإن كان الغفور فمن أجل أن معصيته شديدة بالنسبة إلى مقامه يقتضي ما تقتضيه مائة ألف معصية من غيره مثلاً وهو سبحانه في حق هذا الغير غفور فقد يكون غفوراً في حق آدم من هذا الوجه وغافراً من كونها مخالفة واحدة وربما وقعت بتأويل منه ولو نسي النهي ما عوقب أصلاً وإنما نسي ما ذكرناه، وكذلك اقتناء الاجتباء والتوبة والاستغفار والعفو والخوف وإلا من الوارد عقيب الخوف فإنه أشد لذة من الاستصحاب وكذلك نتج له هذا السفر معرفة التركيب والإنشاء والتحليل فعرف من ذلك نشأة بنيته بتعاقب الأدوار شيئاً بعد شيء بخلاف تكوين الجنة فإنه دفعه في حق الناظر وإن الهم مصروف في الجنة لمجرد اللذة والنعيم والهم

في الدنيا مصروف إلى الزيادة من العلم والبحث عنه فلهذا يعرف من هنا ما لا يعرفه من هناك فينتج له سفره من مثل هذا كثيراً والأسفار كثيرة وأخاف من التطويل وهذا السفر من مثل هذا كثيراً والأسفار كثيرة وأخاف من التطويل وهذا السفر للآدمي يحوي على كثير يحتاج أن يفرد له ديوان كذلك كل سفر ذكرناه ونذكره في هذا الكتاب فالحق ما سكتنا عنه بما تكلمنا عليه ما يناسب ترشد إن شاء الله.

سفر إدريس عليه السلام

هو سفر العز والرفعة مكاناً ومكانة

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧] ويقال إنه أول من كتب بالقلم من بني آدم فأول امداد القلم الأعلى له عليه السلام كان قد أسرى به إلى أن بلغ السماء السابعة فصارت السموات كلها في حورته.

واعلموا أن السموات كلها قد جعلها الله محلاً لعلوم الغيبية المتعلقة بما يحدث الله في العالم من الكائنات جوهرها وعرضها صغيرها وكبيرها وأحوالها وانتقالاتها وما من سماء إلا وفيه علم مودع بيد أمينها وأودع الله نزول ذلك الأمر إلى الأرض في حركات أفلاكها وحلول كواكبها في منازل الفلك الثامن وجعل لكواكب هذه السموات السبع اجتماعات وافتراقات وصعوداً وهبوطاً وجعل آثارها مختلفة وجعل منها ما يكون بينه وبين كواكب آخر مناسبة وجعل منها ما يكون بينه وبين كواكب أخر منافرة كلية وذلك أنه إذا أودع عند الواحد ضد ما أودعه عند الآخر كانت المنافرة لا أنهم أعداء وإنما ذلك لحقائق خلقهم الله تعالى عليها يقضي بذلك ويشغلهم بطاعة ربهم وتسبيحه لا يعصون الله ما أمرهم كما جاء في خلقه مالك خازن النار أنه ما ضحك قط بخلاف رضوان الذي خلق من سرور وفرح وكلاهما عبدان صالحان مطيعان ليس بينهما عداوة ولا شحناء غير أن الآثار هنا في العالم الأسفل تنبعث عن تلك الحقائق وعندنا أغراضنا قائمة فتقع بيننا التحاسد والعداوة والأصل من ذلك وأما عدم المنافرة بين المتناسبين منها فهو إن أوجد الواحد على خلاف ما أوجد الآخر لا على ضده فكل ضد خلاف وما كان خلاف ضد فإن وكيل السماء السابعة يضاد وكيل السماء السادسة حتى أن ما يعلمه صاحب السماء السادسة إذا صار وقت الحكم فيه للملك الموكل فيه في السماء السابعة أفسد ما أصلحه صاحب السماء السادسة كما يفعل أيضاً صاحب السادسة إذا أصلح ما يفسده صاحب السابعة وكل ملك ما عنده أنه يفسد وإنما يقول في فعله أنه أصلح من حيث إنه امتثل فيه أمر ربه وأدى ما أمن عليه وهو الأمر الذي ذكر الله تعالى أنه أوحى في السموات فقال عز من قائل: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ [فصلت: ١٢] فإذا أنست بهذ القدر

وعلمت أنه لا يطعن في العقد وإلا فأية فائدة كانت في قول الله تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤] فبماذا سخرها يا أخي في هذا وأشباهه أليس الله قد سخر العالم بعضه لبعض فقال: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣] فذكر أن في السماء أموراً مسخرة لنا مثل الأرض فلا يقدح في عقيدة مسلم كونه يعلم ما أوحى في السماء من أمرها وفيماذا سخرها عالمها ولو كان ذلك لأطرد في الأرض وفي السماء ونحن في كل زمان نهرب إلى الأسباب التي نصبها الله لنا وعرفنا بها على جهة أنها مسخرة لا على أنها فاعلة نعوذ بالله لا أشرك به أحداً وإنما كفر الشارع من اعتقد أن الفعل للكواكب لا لله وأن الله يفعل الأشياء بها هذا هو الكفر والشرك وأما من يراها مسخرة وأن الله أجراها حكمه فلا بل من جهة ما أودع الله فيها وما أوحى الله فيها من الأمور ورتب فيها من الحكم فقد فاته خير كثير وعلم كثير وماذا بعد الحق إلا الضلال.

واعلم أن إدريس عليه السلام لما علم أن الله تعالى بالعلم الذي أوحاه إليه قد ربط العالم بعضه ببعضه وسخر بعضه ورأى أن عالم الأركان مخصوص بالمولدات رأى اجتماعات الكواكب وافتراقها في المنازل واختلاف الكائنات واختلاف الحركات الفلكية ورأى السريعة والبطيئة وعرف أنه مهما جعل سيره وسفره مع البطيء أن السريع يدخل تحت حكمه فإن الحركة دورية لا خطية فلا بد أن يرجع عليه دور الصغير السريع فيعلم من مجاورة الهبط فائدة المسرع فلم ير ذلك إلا في السماء السابعة فأقام عندها ثلاثين سنة يدور معها في نطع فلك البروج في مركز تدوير وكيلها وفي الفلك الحامل لفلك التدوير والفلك الحامل لأفلاك التداوير هو الذي يدور به فلك البروج فلما عاين ما أوحى الله في السماء وعاين أن الكواكب قريبة الاجتماع من برج السرطان فعلم أنه لا بد أن يكون الله ينزل ماء عظيماً وطوفاً عاماً لما تحققه من العلم ومشى في دقائق الفلك فعلم الجمل والتفصيل.

ثم نزل فاختص من أبناء دينه وشرعه ممن عرف أن فيه ذكاء وفطنة فعلمهم ما شاهد وما أودع الله من الأسرار في هذا العلم العلوي وأنه من جملة ما أوحى الله في هذه السماوات أنه يكون طوفان عظيم ويهلك الناس وينسى العلم وأراد بقاء هذا العلم على من يأتي بعدهم فأمر بنقشها في الصخور والأحجار ثم رفعه الله المكان العلي فنزل بفلك الشمس وهو الفلك الرابع وسط الأفلاك السماوية وهو القلب، لأن فوقه خمس كور وتحته مثل ذلك فأعطاه الله في هذا السفر الذي رفعه به إليه مقام القطبية والثبات وجعل الأمر يدور عليه وعنده يجتمع الصاعد والنازل ونتج له هذا السفر علم الزمان والدهر وما يكون فيه وعلم الزمان من اسنى المعارف الموهوبة نتج له روحانية الليل والنهار وما سكن فيهما فمن سافر

إلى عالم قلبه كما سافر إدريس عاين الملكوت الأفخم وتجلى له الجبروت الأعظم وعاين سر الحياة الذي هو روحها والساري بها في جميع الحيوانات وفرق بين الروح الكثير والروح القليل وأعطى كل ذي حق حقه وعرف من كتب نقوشه السفلية ومراتب أرواحه العلوية وانبعاث الفروع من الأصول وانعطاف الفروع على الوصول وصورة الكون وحكمه الدور وما أشبه هذه المعارف ويكفي هذا القدر من سفر إدريس عليه السلام.

سفر النجاة وهو سفر نوح عليه السلام

لما عرف نوح عليه السلام أن القرآن الذي قدره الله وأجراه حكمه قد قرب وقته ورأى أن ذلك يكون في برج السرطان وهو مائي وهو البرج الذي خلق الله الدنيا به وهو منقلب غير ثابت ولما كان البرج بهذه الصفة فكان طالع الدنيا به شاء الحق بفنائها وانقلابها إلى الدار الآخرة مثل طالعها وهو الأسد برج ثابت وهذه حكمة عليم فأخذ نوح عليه السلام ينشىء السفينة ولم يكن آيته ﷺ في القرآن ولا في الطوفان فإنه ربما أدرك علم ذلك بعض أصحابه من العلماء فشورك فيه فجعل آيته التنور ولو قال بالقرآن لكان علماً لا علامة ولا آية ولهذا سخر به قومه وربما سخر به أصحاب علم التعاليم من أهل عصره حتى كان من أمره ما كان وخلف ابنه لكونه عملاً غير صالح فكان من المغرقين وسافر نوح بأصحابه وجعل في السفينة من كل زوجين اثنين وقال: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١] بعدما فار التنور وألقت الحاملات حملها فجمع له في الإهلاك بين المائين ماء الأرض وماء السماء ولم تزل تجري بهم السفينة في موج كالجبال ونوح عليه السلام ينادي ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] والابن ينادي ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٤٣] ونوح عليه السلام يقول ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] وهم أهل السفينة فإن دعاءه ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] سبقت وأجيبت ففرق من آوى إلى الجبل وكل من لم يكن في السفينة ثم جاء النداء من الغيب من الهواء فإنه لم يذكر المنادي نفسه فيه وجاء بالقول دون النداء للقرب فبلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء وانتقص الماء واستوت سفينة النجاة على الجودي إشارة إلى الجو الإلهي وقال هذا القول من هذا المقام ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] وهم الذين سخروا فاعلم أن الله عز وجل انهى السر اللطيف الذي أقامه الحق في هذا المنزلة منزلة نبيه نوح عليه السلام قد سوى سفينتك وصنعها بيديه ووحيه وكانت عند وحيه بعينه يعني محفوظة بحيث أراها يقول الله تعالى فمن أنت حتى ينزل الحق لك هذا النزول ولا سيما من مقام الإنابة.

ثم إن نفسك الأمارة بالسوء وشيطانك ودنياك وهواك لم يزالوا يسخرون بك ما دمت

تنشىء هذه السفينة نشأة النجاة والتنور محل النار إلى جانبك يقول لهم منه يخرج الماء وهم قد تحققوا أن المقابل من جميع الوجوه لا يستحيل لمقابله أصلاً فسخروا وقالوا إنك ناقص العقل فما فرقوا بين محل النار والماء وذلك لجهلهم بجوهر العالم وصوره فلو علموا أن النار صورة في الجوهر والماء أيضاً صورة في الجوهر لما سخروا.

وإنما تخيلوا أن الماء جوهر وإن النار جوهر ثم تقابلا تقابلاً فأحالوا ما قال وسخروا منه وأنت مشتغل بإنشاء سفينتك أي سفينة نجاتك واستعدادك لأمر الله تعالى عن أمر الله وهو الأنا فقل للساخرين إنهم إن هلكوا في شيء فهم لما هلكوا فيه لا يخرجون منه أبداً وزيادة فاركب في سفينتك بالباء التي هي اسم الله وأقم ألف التوحيد بين الباء وسين باسم فإنك لا ترى في هذه الرحمٰن الرحيم فنحن نتخلف عن سفينتك فإن جريانها بالباء وهي الحافظة وبالباء مرساها بساحل الجود الإلهي فإن بالجود ظهر الوجود فظهر بالجودي ما كان في السفينة وألق في سفينتك من كل زوجين اثنين للتوالد والتناسل فإن تضرب العالم العلوي في العالم السفلي تتكون أنت والمولدات كلها فلا بد من تحصيل الزوجين في هذا السفر فإنه سفر هلاك.

ولما كان الماء يماثل العلم في كون الحياة عنهما حساً ومعنى لهذا أهلكوا بالماء لردهم العلم وكان من التنور لأنهم ما كفروا إلا بماء التنور وما ردوا إلا العلم الذي شافههم به على لسان تنور جسمه وما علموا أنه مترجم عن معناه الذي هو النور المطلق فانحجبوا بماء التنور عن التنور وما علموا أنه النور دخلت عليه تاء تمام النشأة بوجود الجسم فعاد تنوراً أي نوراً تام الملك فهو نور النار مظهره.

وأما إحالة الاستحالة فصحبهم فيما جهل وذلك لو أنهم نظروا إلى التنور لرأوه ينبع الماء منه وليس بينهما تقابل من جميع الوجوه فإن البرودة جامعة فقد جهلوا سر الله في الطبيعة وسر الله في اختصاص التنور فهلكوا وما هلك كل من شافهه بالخطاب إلا بماء التنور خاصة لأنهم ما ردوا سواه وسائر العالم إنما أهلك بماء التنور وماء السماء، وماء السماء فهو ماء الدولاب الدائر فإنه مقطر في إنبيق الزمهرير وأنه عاد إلى مأمنه انتشار، وإهلاك الله عز وجل بالنار لكن هنا واسطة الرسالة فأدرج النار في الماء لما لم يكشف عن الساق فأخرج النار الرطوبات والبخارات وأخذ علواً وقد عاد النار بخاراً وأخذ في الجو أخذ الدولاب إذا خرج من الماء فما زال يصعد حتى بلغ دائرة الزمهرير فتقاطر مطراً بتقدير العزيز العليم فليست إلا دوائر التقدير في كرة الإنشاء لا تزال أبداً في الدنيا ولا في الآخرة فنتج هذا السفر وقف الحكمة الإلهية مع القدرة النافذة في التناسل على الزوجين ونتج له أن الإلهية إذا لم تكن علوية فليست بصحيحة النسب عليه ونتج له أن الجود علة تكون النجاة، ألا ترى أن

موسى عليه السلام لما أراد أن يدعو على قومه بالهلاك دعا عليهم بالبخل فلما بخلوا هلكوا وتبين أن كل كون في العالم لا بد أن يتوجه عليه القول فتارة يغيب الغيب إذا جاء القول على بناء ما لم يسم فاعله مثل وجيء يومئذ بجهنم وقيل بعداً وقيل يا أرض ابلعي ماءك وتارة بالأنا كقوله إذا قلنا وتارة بالألوهية مثل قال الله وتارة بالربوبية مثل قال ربك فكل قول بحسب الاسم الذي يضاف إليه فمن سافر سفر نوح فإنه سيعرف من العلوم البرزخية والكونية شيئاً، وفي هذا السفر يتعلم الصنعة ولهذا أخرها الجود فإنها من أجل الجود وجدت ويكفي هذا القدر من سفر نوح فإن سره يطول.

سفر الهداية وهو سفر إبراهيم الخليل عليه السلام

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] فأضافه بفداء ابنه لما نزل عليه لأن اللذة إنما تعظم على قدر الغصة ثم إنه لما بشر في إجابة دعائه في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠] ابتلي فيما بشر به لأنه سأل من الله سواه والله غيور فابتلاه بذبحه وهو أشد عليه من ابتلائه بنفسه.

وذلك أنه ليس له في نفسه منازع سوى نفسه فبأدنى خاطر يردها فيقل جهاده وابتلاءه بذبح ابنه ليس كذلك لكثرة المنازعين فيه فيكون جهاده أقوى ولما ابتلي بذبح ما سأله من ربه وتحقق نسبة الابتلاء وصار بحكم الواقعة فكأنه قد ذبح وإن كان حياً بشر بإسحاق عليه السلام من غير سؤال فجمع له بين الفداء وبين البدل مع بقاء المبدل منه فجمع له بين الكسب والوهب فالذبح مكسوب من جهة السؤال وموهوب من جهة الفداء فإن فداءه لم يكن مسؤولاً وإسحاق موهوب.

ولما كان إسماعيل قد جمع له بين الكسب والوهب في العطاء فكان مكسوباً موهوباً لأبيه فكانت حقيقة كاملة لذلك كان محمد ﷺ في صلبه بل لكون محمد ﷺ في صلبه صح الكمال والتمام لإسماعيل فكانت في شريعتنا ضحايانا فداء لنا من النار فمن طلب سفر الهداية من الله فليتحقق عالم خياله، فإن الحقائق لا بد أن تنزل عليه فيه وهو منزل صعب لأنه معبر ليس مطلوباً لنفسه وإنما هو مطلوب لما قصب له ولا يعبره إلا رجل ولهذا سمى تأويل الرؤيا عبارة لأن المفسر يعبر منها إلى ما جاءت له كما عبر النبي ﷺ من القيد إلى الثبات في الدين ومن اللبن إلى العلم.

فإذا وصل وجد فلو عبر الخليل عليه السلام من ابنه إلى الكبش لرأى الفداء قبل حصوله وكان يمتثل الأمر فارغ القلب لمعرفته بالمآل ولكن ظلمة الطلب والسؤال من ربه غير

ربه منعه من العبور لأن الظلمة يتعذر العبور فيها لأنه لا يدري أين يضع قدمه ولم تكن أيضاً تحصل له تلك اللذة التي حصلت له ولا ذاك الامتنان الإلهي المشهود وكان الفداء بالحمل الذي هو بيت شرف الوسط وروح العالم لأنه أشرف البيوت فكان بدلاً من جسده لا من روحه لاشتراكهما في النسبة فإن الذبح لا يقع إلا في الجسم والهدم والخراب لا يقع إلا في البيوت.

فإذا سافر الإنسان في عالم خياله جازه إلى عالم الحقائق فرأى الأشياء على ما هي عليه وحصل له الوهب المطلق الذي لا يتقيد بكسب وصار يأكل من فوقه بعدما كان يأكل من تحت رجله ولما كان الوهب يبقيك بخلاف المشاهدة كان سحقاً ولم يكن محقاً فإن المسحوق مفرق الأجزاء فهو أبعد من حال المحق ولولا ما علق السؤال أولاً بقوله: ﴿هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] لكانت البشرى بالمشاهدة لا بإسحاق فإسحاق إسحاق السائل بسؤاله الكون من محق العين أي أبعده وكانت إشارة إلى مقام البعد المحال فإن الأمور الإلهية لا تنزل أبداً إلا بحسب الاستعداد والمحل هنا غير منجرد إليه فكيف بهبة العين وهو غير قابل والواهب عليم حكيم والوقت قاض والابن من عالم التبديل.

سفر الإقبال وعدم الالتفات

من سفر لوط إلى إبرهيم الخليل عليه السلام

واجتماعه به في اليقين

الخبر المروي في ذلك معلوم محفوظ عند العلماء وروحه فينا هو المطلوب لنا في الاعتبار.

اعلم أن اسم لوط أعني هذه اللفظة اسم شريف جليل القدر لأنه يعطي اللصوق بالحضرة الإلهية ولهذا قال: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] يريد القبيلة لأني لا أستطيع الانتقال من الركن الإلهي إلى الركن الكوني وقد شهد له رسول الله ﷺ بذلك فقال «يرحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد» فنعم الشاهد والمشهود له فلاستناده إليه ولصوقه به في علم الله سمى لوطاً لم يضف إلى غيره وجعل له السري لأنه سفر في الغيب إذ لفظ السري لا يطلق الأعلى سير الليل ففي الاعتبار لا في التفسير قيل له أسر باهلك أي بجميع ذاتك فشاهد الحقائق كلها إلا امرأتك فاعتبرناها فينا الأمر بترك نفسه الأمارة بالسوء التي لاحظ لها في المعارج العلى المعنوية ويسار إلى اليقين وهو موضع معروف سمي بهذا الاسم وفيه كان ينتظره إبراهيم الخليل عليه السلام لأنه موطنه ولهذا قال ﷺ «نحن أولى بالشك من إبراهيم» في اليقين فحصل ذلك المقام للنبي لوط عليه السلام وفي الصبح جاء

اليقين له لأنه طلوع الشمس وكشف الأشياء عيناً بعدما كانت غيباً فأعطت اليقين بلا شك ولا ريب.

فهذا أنموذج من ذلك أي حظنا من سفر لوط وكذلك كل سفر أتكلم فيه إنما أتكلم فيه في ذاتي لا أقصد التفسير تفسير القصة الواقعة في حقهم، وإنما هذه الأسفار قناطر وجسور موضوعة نعبر عليها إلى ذواتنا وأحوالنا المختصة بنا فإن فيها منفعتنا إذ كان الله نصبها معبراً لنا ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى فما أبلغ قوله تعالى وجاءك في هذه الحق وقوله، وذكرى لما فيك وما عندك بما نسيته فيكون هذا الذي قصصته عليك يذكرك بما فيك وما نبهتك عليه فتعلم أنك على كل شيء وفي كل شيء ومن كل شيء.

شعر

فإني وإن كنت من كل شيء ... فإني مع الحق في كل شيء
فإني ظل به ظاهر ... وإن كنت ظلا فإني لفي
فعين هبوطي صعودي إليه ... بسعد السعود لدى كل حي
فقد زاد رشدي على كل رشد ... كما زاد غيي على كل غي
كما هو مع كل ميت وحي ... كذا هو في كل نشر وطي

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سفر المكر والابتلاء

في ذكر يعقوب ويوسف عليهما السلام

اعلم أنه إذا أكرم الله عبداً سافر به في عبوديته يقول عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] فما سماه إلا بأشرف أسمائه عنده لأنه ما تحسن عبد بحسن أحسن ولا أزين من حسن عبوديته لأن الربوبية لا تخلع زينتها إلا على المتحققين بمقام العبودية.

يا مشبهاً يوسف في حسنه ... رفقاً على مشبه يعقوب
إنه له صبراً على نائكم ... يقصر عنه صبر أيوب
لولا لحوق النقص قلنا رضي ... وأنه ليس بمطلوبي
وإنما مطلبي منه الذي ... يعلمه فذاك مرغوبي
فالأمر ما بيني وبين الذي ... اسأله الوصل بمحبوبي

واعلم أن الذين تحققوا مقام العبودة تعرض لصاحبه للبلاء ثم إن من شأن هذا الموطن أنه لا يكمل فيه عز لأحد ولا راحة ولما وهب الله عز الحسن يوسف عليه السلام ابتلي بذل الرق ومع ذلك الحسن العالي الذي لا يقاومه شيء بيع بثمن بخس دراهم معدودة من ثلاثة دراهم إلى عشرة لا غير وذلك مبالغة في الذلة تقاوم مبالغته عزة الحسن.

ثم سلب الرحمة من قلوب الإخوة، والحسن مرحوم أبداً بكل وجه فظهر أن الأمر الإلهي لم يكن بيد الخلق منه شيء سوى التصريف تحت القهر فزال بهذا الذل العظيم عن ذلك الحسن العرضي فبقي في سفره طيب النفس عزيزاً بالعزة الإلهية لا غير والقصة معروفة فلا معنى لذكرها في عالمها ولكن الفائدة في ذكرها في عالمنا أعني العالم الإنساني في نفسه فاعلم أن الله تعالى لما أراد من النفس المؤمنة أن تسافر إليه اشتراها من إخوتها الأمارة واللوامة بثمن بخس من عرض العاجلة وحال بينها وبين العقل الذي هو أبوها فبقي العقل حزيناً لا تفتر له دمعة فإن الإلهام الإلهي والامداد الرباني إنما كان لهذا النفس وكان العقل يتنزه في الحضرة الإلهية بوجود هذه النفس فلما حيل بينه وبينها لم يزل يبكي حتى كف بصره وذلك أن البصر وإن لم يكن مكفوفاً صاحبه فإن الظلمة إذا تكاثفت وحجبت المبصرات صار صاحب البصر أعمى، وإن كان البصر موجوداً يبصر به الظلمة ولما كان الحزن ناراً والنار تعطي الضوء لذلك قيل: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤] فجاء بالبياض فإن البياض لون جسماني كما أن الضوء نور روحاني.

ثم إنه لما وقع البيع وحصل في الملك قيل للمرأة التي هي عبارة عن النفس الكلي ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١] فمن كرامتها به أن وهبت نفسها له ورأته النفوس الجزئية خارجاً عنها فقالت: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] لما رأته من تقديسه نفسه عن الشهوات الطبيعية وهذا مما يدلك على عصمته من أن يهم بسوء فإن الملك ليس من السوء في شيء ولهذا صوبت النفس الكلي قولهم لها فاستعصم ولئن لم يفعل لأسجننه فعندما همّ بها ليأخذ منها ما أودع الله من الحقائق فيها من غير أمر إلهي له بذلك غار الحق أن يتصرف عبده في شيء من غير أمره فأظهر له في سره برهان عبوديته فتذكر عبوديته فامتنع من التصريف بغير أمر سيده فحبسته النفس في سجن هيكله فلم يزل يناجي في سره سيده بالعبودة حتى أقرت النفس أنها الطالبة لا هو فأثبت له السيد الحفظ والأمانة ولو همّ بسوء لم يكن أميناً ولو فعل لم يكن حفيظاً ولهذا قال: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤] والهمُّ بالسوء من السوء وهو مصروف عنه أعني السوء فلم يكن يهم بسوء فولاه الملك والسيادة بدلاً من العبودية الكونية الظاهرة التي كان فيها قبل ذلك.

ثم أجدب محل العقل الذي هو الأب وسمع بالرخاء الذي في مدينة ابنه وهو لا يعلم أنه ابنه لأنه أعمى فبعث إليه بالرحم المتصلة لينيله شيئاً مما أمن عليه فبعث إليه بثوبه الذي فيه رائحته وهو على صورته فلما استنشق الرائحة وألقاه على وجهه أبصر قميصه فأخذ في الرحلة إليه ابتداء في عز يناقض سفر ابنه فلما دخل عليه سجد لأنه معلمه الذي يهبه من الله ما تقوم به ذاته ويتنعم به وجوده فقد تبين أن النفس هنا بمنزلة يوسف بوجوه.

أحدها: ما ذكرناه من وقوع البيع والشراء ومنها قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١] والملك فيه المطيع والعاصي والموافق والمخالف وفي النفس قيل: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٨].

ومنها أيضاً قوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١] وقال: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ والرؤيا إنما تكون من عالم الخيال وهو العالم الوسط وهو بين عالم العقل وعالم الحس وكذلك النفس بين عالم العقل وعالم الحس فتارة تأخذ من عقلها وتارة تأخذ من حسها هكذا ولهذا دفعت المرأة لغلبة الأنوثة وإن كان تأنيثها غير حقيقي مع ذلك الحس فلو كانت الذكورية غالبة لم تدفع للنفس من أجل المودة والرحمة التي يسكن بها الذكر للأنثى والأنثى للذكر بخلاف الأنثى للأنثى والذكر للذكر فإن المودة لا تثبت بينهما ولولا الشبه الذي ظهر في الغلمان بالإناث ما حن إليهم أحد فالحنان إنما وقع على الحقيقة للأنثى أما بالحقيقة أو بالشبه ولهذا إذا بقل وجه الغلام وطر شاربه رحلت المودة والرحمة التي كانت توجب السكون إليه ولهذا قيل:

وقالوا العذار جناح الهوى ... إذا ما استوى طار عن وكره

هذا البيت أنشدنيه قائلة وهو الكاتب الأديب أبو عمرو بن مهيب بإشبيلية عمله في حمو بن إبراهيم بن أبي بكر الهدنجي وكان أجمل أهل زمانه رأه عندنا زائراً وقد خط عذاره فقلت له يا أبا عمرو أما ترى إلى هذا الحسن الوجه فعمل الأبيات في ذلك وهي.

وقالوا العذار جناح الهوى ... إذا ما استوى طار عن وكره
وليس كذاك فخيرهم ... قياماً لعذري أو عذره
إذا كمل الحسن في وجنة ... فخاتمه ويك من شعره

وقد ورد أن في وجوه الغلمان لمحات من الحور العين فيا أيتها النفس المنيعة احذري في سفرك أن تغفلي عما يجب عليك لسيدك من الوقوف عند حدوده والحفظ لحرمه فإنك إذا فعلت ذلك سينيلك حرمته بحرمته ويهبك نعمته بنعمته.

سفر الميقات الإلهي لموسى عليه السلام

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣] الآية.

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

اعلم أن العبد إذا كان عبداً حقيقة ووفى الجناب الإلهي السيادي ما يستحقه من الأدب والخدمة وكان معه أبداً على قدم الحذر والمراقبة لأنفاسه لعلمه بأنه يعلم السر وأخفى فلا يطمع في شيء منه البتة فلا يزال جامداً لا تقوم به حركة عن موطن عبوديته ولا شوق إلى منحه من منح سيده فكيف إلى مجالسته أو محادثته أو مسامرته غير أن الشوق كامن في فطرة العبد بما هو إنسان كالنار في الحجر.

النار في احجارها مخبوة لا تصطلي ما لم يثرها الأزند

فلا يظهر إلا بشيء غريب زائد على ذاته فإن وعد السيد عبده لمحادثته أو مجالسته ثار الشوق الكامن بين ضلوعه وحن إلى وعد ربه لكن لا يدري متى يفجأه الوعد لكونه غير مربوط بحد وأجل فإن كان الوعد بضرب ميقات هاج الشوق وعظم غليانه لانقضاء المدة فأعطى العجلة عند العبد وهو قوله: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه: ٨٣] وكان معذوراً فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

ثم إن المواقيت لما كانت آجالاً كان حكمها حكم الآجال وحكم الآجال كما قد سمعت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٢] كذلك قال: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]فهذا ميقات ثم قال: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] وهذا الميقات المضروب ميقات غيب لأنه ليلى إذ كان الأمر الذي أجله ضرب الميقات غيباً أيضاً فإن المدلولات أبداً تطابق أدلتها فلما تعينت المدة بالثلاثين ولم يخوفه أولاً بالأربعين لئلا يطول عليه أو يحدس في سره بذكر الأربعين التي هي أربع من العقد.

إن ذلك إشارة إلى انقضاء هيكله المربع فيعظم أسفه ولا يقل وأين الأربعون من الأربعة فاعلم أن هذا الهيكل إنما قام من الأربعة المركبة وهي الأربعون والأربعة لا تركيب فيها فإنها بسائط ولكن هي أصل الأربعين فكذلك هذا الهيكل لم يقم من البسائط الأربعة التي هي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة وإنما قام من المركبة التي هي السوداء والصفراء والبلغم والدم وكل واحدة من هذه مركبة من حرارة ويبوسة كالصفراء وحرارة ورطوبة كالدم وبرودة ويبوسة كالسوداء وبرودة ورطوبة كالبلغم فكان الوعد المسمى بالأربعين عنده وجاء الذكر بالثلاثين لما ذكرناه ولم يكن المراد بالأربعين إلا هذا أو مثله مما يطابقه فإن الأمر الحاصل بعد الميقات لا يبقى رسماً للعبد عند العبد فإن كانت محادثة فالعبد إذن كله وإن

كانت مشاهدة فالعبد عين كله فقد زال عن حكم ما تقتضيه ذاته مع أنه تقتضيه ذاته ولكن لا لعينها ولم يكن قبل ذلك ذاق هذا المقام ولا شاهد هذه الحال فبالضرورة كان يبعد عنده ولذلك قال:

إذا ما تجلى لي فكلي نواظر وإن هو ناداني فكلي مسامع

فلما أكمل الثلاثين وهو الميقات الأول حركه بالتطهير لإظهار تمام الميقات فاستاك فأتم الميقات من أجل السواك ولوأتمه من غير أن يجعل تمامه مشعراً بعقوبة لحزن موسى عليه السلام وظن أنه أيضاً يعده العشر بعد آخر فلما جعل لذلك سبباً وهو تطهير الفم لجأ إلى التحفظ فلم يتحرك في شيء من غير أمر إلهي وأيضاً لما أوقع التقديس خرج عن عبوديته والحضرة الإلهية لا تقبل إلا العبد والعبد ليست له القدوسية فغارت أن يدخل عليها المنازع لها في صفتها من التقديس ولا سيما بغير أمر إلهي فإن العزيز لا يراه ذو عزة وإنما يراه الذليل لأنها ما تجد ما يمنحه فالعزيز إذا دخل على العزيز ليس له ما يمنحه إلا العزة وبها دخل عليه فما يمنحه فلا سبيل إلى دخوله عليه إلا بما تقتضيه حقائق العبودية فلهذا أيضاً أتم له عشراً ليزول عنه التقديس الذي ابتغاه وهذه كلها أسباب إلهية وضعها الحق في العالم لإظهار حكمته في كونه فإذا تم الميقات وتحرر العبد بتمامه من رق الأوقات ولم يبق عبداً إلا له تعالى وفاه وعده فناجاه وكلمه فبعد أن وفاه الوعد حظه وقدس سمعه ولفظه وأعطاه الكلام الكل كما أعطاه السمع الكل فإنه كما كان أذناً كله عند سماعه كان لساناً كله عند مراجعته فعرف ذوقاً ومشاهدة عين أن الكل يقبل الكل وأنه واحد في كل حضرة يتميز فهذا سفر غيبي معنوي زماني ظهر في اللسان المحمدي بقوله، من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، فيسمع أولاً قلبه ثم ينطق لسانه بما وعاه سمع قلبه ولكن صاحب هذا السفر لا بد أن يخلف في قومه من ينوب منابه.

وقد ذكرنا المسافر فانظر أنت يا أخي في النائب حتى يكون لك في المسألة مدخل بوجه ما وعند التجلي يكون سفر الجبال منهزمة أمام جلال المتجلي إذ لا طاقة للجبال على مشاهدة الغيب أصلاً ولهذا قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] هذا مع التنزل فكيف مع سماع الكلام برفع الوسائط فكيف الرؤية فتحقق هذا الفصل تشهد علماً كثيراً.

سفر الرضا وهو قوله عز وجل

عن موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] حين قال له: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه: ٨٣].

عجلت إلى ربي ليرضى لسرعتي فلما وصلنا قال لم عجل العبد
فقلت له الوعد الكريم أتى بنا إليك ولكن ما أرى صدق الوعد
فقال لي الرحمٰن كمل شروطه كما قد أمرتم فانتفى القرب والبعد

ومن ذلك

إن الرضا هو أصلي الذي خلقت عليه
وحدي ولم أر غيري يؤول فيه إليه

مواهب الله لا نهاية لها فما لها آخر ترجع إليه فتنقضي والعبد ما توفي فيما كلفه الله وسعه ولاحق استطاعته. فصح وثبت رضي الله عنهم فيما أتوا به من الأعمال ورضوا عنه ورضوا بما وهبهم مما عنده مما لا يتناهى كثرة فرضي الله عنهم ورضوا عنه فالرضا من صفات الحق والرضا من صفات الخلق بما ينبغي للحق وبما يليق بالمخلوق وإن كان لا يستغني عن الابتداء الإلهي لأنه فقير بالذات محتاج على الدوام لبقاء وجوده وإبقائه عليه وفي رضائي عنه رضاه عني وأنا حكيم وقتي عليّ يدور الوجود ويخدمني.

إن الحكيم الذي الأكوان تخدمه لأنه ينزل الأشيا منازلها
يبدو إلى كل ذي عين بصورته ولا يقول بأن الحق نازلها
فإن تبدت إلى عيني حقيقته يكون كوني بلا شك منازلها

واعلم أن الإنسان إذا جهل حاله جهل وقته ومن جهل وقته جهل نفسه ومن جهل نفسه جهل ربه فإن رسول الله ﷺ يقول «من عرف نفسه عرف ربه»، إما بالنقيض كالمعرفة العامة وإما بالصورة كالمعرفة الخاصة وهي التي عول عليها أهل الخصوص من الجماعة ونحن وإن كنا نقول بذلك فمعرفة العامة عندنا أرجح، فإنها الجامعة بين الإبتداء والانتهاء وإليها الرجوع ولا بد عامة وخاصة فاعلم ذلك، وكن على بصيرة من أمرك في ذلك وعلى سنة من ربك عسى يتلوك شاهد منك فتكون سعادتك به إن شاء الله فتكون ممن سبقت له الحسنى من الله جل ثناؤه وعز جلاله ولما قال الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣﴾ [طه: ٨٣] أضرب موسى عليه السلام عن الجواب وجوابه أن يقول أعجلني كذا وكذا ويبين فقال: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ يشير إلى حكم الاتباع ثم ذكر عجلته فقال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] إني سارعت إلى إجابة دعائك حين دعوتني وقومي على أثري فقال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ [طه: ٨٥] أي اختبرناهم وأضلهم السامري بالعجل الذي قال لهم هو في شأنه ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] وسبب ذلك أنه لما مشى مع موسى عليه السلام كشف الله عن بصره حتى أبصر الملك الذي

هو على صورة الثور من حملة العرش فتخيل إله موسى الذي يكلمه فأخرج لهم العجل وكان قد عرف جبرئيل حين جاءه وأنه لا يمر بشيء إلا حيي بمروره فقبض قبضته من أثر فرس جبريل ورمى بها في العجل فحيي العجل وخار لأنه عجل والخوار صوت البقر وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى ونسي السامري إذا سأله عابدوه أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً فقال لهم هارون: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فقال لهم ما ذكر الله في كتابه عنه أنه خاطبهم به.

سفر الغضب والرجوع

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠].

غضبت على نفسي لنفسي فلم أجد ... سواه فقلت الذنب للمتقدم
فما زلت مسروراً وما زلت قارعاً ... لما كان مني فيه سر التندم
فلو كنت حقاً لم أكن واحداً به ... ولو كنت خلقاً لم أقل بالتقدم

غضبان على قومه أسفاً عليهم لما فعلوه من اتخاذهم العجل إلهاً وإنما كان عجلاً لأن السامري لما مشى مع موسى عليه السلام في السبعين الذين مشوا معه كشف الله عنه غطاء بصره فما وقعت عينه إلا على الملك الذي على صورة الثور وهو من حملة العرش لأنهم أربعة واحد على صورة أسد وآخر على صورة نسر وآخر على صورة ثور ورابع على صورة إنسان فلما أبصر السامري الثور تخيل أنه إلٰه موسى الذي يكلمه فصور لهم العجل وقال هذا إلٰهكم وإله موسى وصاغه من حليهم ليتبع قلوبهم أموالهم لعلمه أن المال حبه منوط بالقلب وعلم أن حب المال يحجبهم أن ينظروا فيه هل يضرا وينفع أو يرد عليهم قولاً إذا سألوه.

وقال لهم هارون يا قوم إنما فتنتم أي أخبرتم به لتقوم الحجة لله عليكم إذا سألتم وإن ربكم الرحمٰن ومن رحمته بكم أنه أمهلكم ورزقكم مع كونكم اتخذتم إلٰهاً تعبدونه غيره سبحانه ثم قال لهم فاتبعوني لما علم أن في اتباعهم إياه الخير وأطيعوا أمري لكون موسى عليه السلام أقامه فيهم نائباً عنه فقالوا لن نبرح عليه يريدون عبادة العجل عاكفين أي ملازمين حتى يرجع إلينا موسى الذي بعث إلينا وأمرنا بالإيمان به فحجبهم هذا النظر أن ينظروا فيما أمرهم به هارون عليه السلام فلما رجع موسى إلى قومه وجدهم قد فعلوا ما فعلوا فألقى الألواح من يده وأخذ برأس أخيه يجره إليه عقوبة له بتأنيه في قومه فناداه هارون عليه السلام بأمه فإنها محل الشفقة والحنان: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ﴾ [طه: ٩٤] ولقد خشيت لما وقع ما وقع من قومك أن تلومني على ذلك: ﴿بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤] أي تلزم قولي الذي أوصيتك به.

ثم رد وجهه إلى السامري فقال له فما خطبك أي ما حديثك يا سامري فقال له السامري ما رآه من صورة الثور الذي هو أحد حملة العرش فظن أنه إلٰه موسى الذي يكلمه فلذلك صنعت لهم العجل وعلمت أن جبريل ما يمر بموضع إلا حيي به لأنه روح فلذلك قبضت من أثره لعلمه بتلك القبضة فنبذتها في العجل فخار فما فعل السامري إلا عن تأويل فضل وأضل فإنه ما كان تأويل يصيب مع علمه أن التجلي في الضوء جاءت به الشرائع مع التنزيه.

فقبل موسى حذر أخيه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١] وأما الذين عبدوا العجل فما اعطوا النظر الفكري حقه للاحتمال الداخل في القصة فما عذرهم الحق ولا وفى عابدوه النظر في ذلك، فثبت بهذه الآية النظر العقلي في الإلهيات حتى يرد الشرع بما يرد في ذلك، وأما الذلة التي نالت بني إسرائيل فمشهودة إلى اليوم ما أقام الله لهم علماً وما زالوا أذلاء في كل زمان وفي كل ملة وجعل الله ذلك جزاء المفتري على الله حيث نسب إليه من غير ورود شرع ما لا يليق في النظر الفكري أن يكون عليه الآله المعبود من الصفات والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

سفر السعي على العائلة

لقد فزت بالسعي الجميل على أهلي ... بربي فجلى لي العناية في شغلي
فلولاهم ما كنت عبداً مقرباً ... ولا كنت من أهل السيادة والفضل
ولا سلكت نفسي إذا ما زجرتها ... عن الشغل بالأكوان في أقوم السبل
وكنت من المختار في ظل عرشه ... إذا كانت الأنصار تأتي مع الرسل

قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] فانظر ما أعجب قوة النبوة لأنه وجد الهدى وهذا يدلك على أنه ما قطع فيما أبصر أنه نار ولا بد وكل نار فهو نور إذا اشتعل والأنوار محرقة بلا شك في الأجسام القابلة للاحتراق والاشتعال، ورد في الخبر الصحيح لأحرقت سبحات وجه ما أدركه بصره من خلقه والسبحات الأنوار وأخبر أن السبحات تبلغ اشعتها مبلغ ناظر العين في الإدراك.

واعلم أن الأمر الواحد قد تكون له وجوه مختلفة من كونه كذا عنه كذا ومن كونه كذا أي حكم آخر يكون عن ذلك أمر آخر فالأمر من كونه يرى ما هو من كونه يعلم ومن كونه ما هو من كونه يسمع وإن كان الأمر الذي يدرك به أمر واحد في عينه وتختلف تعلقاته فنقول فيه بالنظر إلى الأمر الواحد أنه يسمع بما به يبصر بما يتكلم إلى غير ذلك وبعض النظار يجعل لكل حكم إدراكاً خاصاً غير الإدراك الآخر فتعدد وإن كنا لا نقول بذلك ولكن سقناه

ليعلم السامع أنا قد علمنا أن ثم من يقول بهذه المقالة وإن كنا لا نرتضيها وإنما اختلف التعلقات لاختلاف المتعلق لا لاختلاف المتعلق اسم فاعل.

فالعين واحدة والحكم مختلف والقائلون بذا قوم لهم نظر
الله أعظم أن تدرى مقاصده في خلقه بل له الآيات والعبر
جل الإله فلا عقل يحصله وعز قدراً فما يحظى به بشر
لكن له صور فينا محققة جاء الخطاب بها في ضمنها صور
تعنو لصورة من يعزي له صور فما ترى صوراً إلا لها سور

واعلم أن كل خير في السعي على الغير والسعي على الأهل من ذلك وشرف الأهل بشرف من يضاف إليه ورد في الحديث في أهل القرآن أن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته فما أعظم أجر من سعى في حق الله إلا من أجل الأهلية فافهم، إذا كانت عناية الله بأهل البيت النبوي المحمدي ما ذكر الله في كتابه لنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال الفراء لما سأل عن الرجل ما هو؟ قال القذر فإذا كان الله تعالى مع أهل بيت النبوة يريد ذهاب الرجس وحصول التطهير فما ظنك بأهل القرآن الذي هم أهله وخاصته، فالحمد لله الذي جعلنا منهم وأقل الأهلية في ذلك حمل حروفه محفوظة في الصدور فإن تخلق بما حمل وتحقق به وكان من صفاته فبخ على بخ.

ولقد بلغني عن أبي العباس الخشاب من أصحاب أبي مدين رضي الله عنه بمدينة فاس أن رجلاً دخل عليه وبيده كتاب من كتب الطريق فقرأ عليه ما شاء الله وأبو العباس ساكت فقال له الرجل يا سيدي لم لا تتكلم لي عليه فقال له أبو العباس اقرأني فعظم على الرجل هذا الكلام فدخل على شيخنا أبي مدين وقال له يا سيدنا كنت عند أبي العباس الخشاب وقرأت عليه كتاباً في الرقائق ليتكلم لي عليه فقال لي اقرأني فقال الشيخ صدق أبو العباس على ما كان يحوي ذلك الكتاب فقال على الزهد والورع والتوكل والتفويض وما يقتضيه الطريق إلى الله فقال له الشيخ فهل كان فيه شيء ما هو حال لأبي العباس الخشاب؟ قال لا قال له الشيخ فإذا كانت أحوال الخشاب جميع ما يحوي عليه ذلك الكتاب ولم تتعظ بأحواله ولا تخلقت بشيء من ذلك فما فائدة قراءتك عليه وسؤالك أن يتكلم لك وقد وعظك بحاله وأفصح في ذلك ونصح فخجل الرجل وانصرف. أخبرني بهذه الحكاية عنه الحاج عبد الله المروزي بإشبيلة في جماعة، فانظر يا وليي إلى حسن طريقتهم ما أعجبها جعلنا الله منهم وألحقنا بهم أنه ولي ذلك والقادر عليه.

سفر الخوف

فــــررت مـــنـــي إلـــيـــه أو خـــفـــت مـــنـــه عـــلـــيـــه
وذاك مـــن جـــهـــل نـــفـــســـي بـــمـــا تـــؤول إلـــيـــه

قال تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١] وقال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

ما مر يوم علينا إلا بكيت عليه إذا مشى وتقضي بما يؤل إليه
إني رأيت أموراً وكلها في يديه تجري على حكم وقتي والحكم في لديه

الخوف من مقام الإيمان قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال في حق الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠] وأفعالهم أفعال الخائفين وقال في حق طائفة يمدحهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧] فلكل موطن خوف يخصه إذا حققت فما متعلق كل خوف إلا ما يكون من الله وهو محدث فما الخوف إلا من المحدثات والله يوجد في ذلك فتعلق خوفنا بالموجد لذلك وهذا قوله وخافوني إن كنتم مؤمنين فجعل الخوف نتيجة الإيمان فإنه موقوف على العلم الإلهي الذي يأتي به الصادق من عند الله فإن العلم من غير إيمان لا يعطيه ولا سيما وقد دل الدليل أن العالم مصنوع لله تعالى وثبت أنه تعالى عليم حكيم فخرج العالم على أحسن صنعه من عالم.

فما ثم ما يدل على فساده لكن ينتقل من حال إلى حال ومن منزل إلى منزل فهذا غير محال ولهذا الانتقال حصل الخوف عند الرجال من الله لا يعرفون مراد الله فيهم ولا إلى أين ينقلهم ولا في أي صفة وطبقة يميزهم فلما أبهم الأمر عليهم عظم خوفهم منه أما خوف الملائكة فهو خوف يزول عن مرتبة إلى مرتبة أدنى ولا سيما وقد روي أن إبليس كان من أعبد الخلق لله تعالى وحصل له الطرد والبعد من السعادة التي كان يرجوها في عبادته من الله تعالى لما حقت عليه كلمة العذاب عاد إلى أصله الذي خلق منه وهو النار فما عذب إلا به فسبحان الحكم العدل ورجال الله يخافون من الاستبدال وهذا الذي يدعوهم إلى تفقد أحوالهم مع الله عز وجل في كل نفس ولا سيما والله يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] يعني فيما وقع منهم من المخالفة لأمر الله بل يكونون على أتم قدم وأقواه في طاعة الله.

فـلـولا الـلّـه مـا عـرف الـمـقـام ولا وجـد الـوراء ولا الأمـام

فبالله وجدنا وإليه دعينا ورددنا ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] ولما أقامني الله

في مقام الخوف كنت أخاف من ظلي أن أنظر إليه لئلا يحجبني عن الله وعلى هذا كله فما هي الدنيا دار أمان ولو بشر الإنسان بالسعادة فإنها محل نقص الحظوظ وسبب ذلك إنما هو التكليف الشرعي فإذا زال التكليف الذي هو خطاب الشارع بالأمر والنهي ارتفع عن العبد الخوف العرضي وبقيت له الهيبة فيكون خوفه هيبة للمشهد الإلهي قال الشاعر يصف إجلال حضرة قوم.

كأنما الطير منهم فوق أرؤسهم لا خوف ظلم ولكن خوف إجلال

جعلنا الله من أهل الهيبة والتعظيم فإن ذلك لا يكون إلا من استيلاء العظمة بسلطانها على قلب العبد المعتني به في المشاهد القدسية الإلٰهية واعلم أن الخفا في اللسان هو الظهور قال امرؤ القيس.

خفاهن من انفاقهن

أي أظهرهن يعني اليرابيع فإن اليرابيع تجعل لجحرتها التي تتخذها في الأرض بابين إذا جاء الصائد من الباب الواحد خرج من الباب الآخر ويسمى ذلك الجحر النافقاء ومنه سمي المنافق منافقاً لأن له وجهين وجهاً يقابل به المؤمنين ويظهر أنه معهم ووجهاً يقابل به الكفار ويظهر أنه معهم فجعلوا لمن هذه صفته اسم المنافق والله يقول في حق من قال: ﴿نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٥] يقول إن طلبك الأعداء من جانب خرجت من الجانب الآخر طلباً للسلامة منهم ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فتكون من أهل باب واحد وكان المنافقون في زمان رسول الله ﷺ يأتون إلى المؤمنين بوجه به يظهرون أنهم معهم ويأتون إلى المشركين بوجه يظهرون به أنهم معهم ويقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وأخبر الله تعالى: أنه يستهزىء بهم بذلك الفعل الذي يفعلونه مع المؤمنين وهم لا يشعرون فهذا من مكر الله بهم وهو قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النمل: ٥٠] فإن شعر به فليس بمكر.

سفر الحذر

لقد جاءني الوحي العزيز بأن اسري بنفسي وأهلي عالم الخلق والأمر
بأن الإلٰه الحق ربي قد قضى بموت عدو الدين في غمة البحر

يقول الله تعالى حكاية عن قول شخص: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ [الشعراء: ٥٦] والحذر نتيجة خوف يقول تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] فإنه من أخذ حذره من شيء لم يؤت عليه منه وأكثر ما يؤتى على الشخص من مأمنه أي من الجهة التي يأمن على نفسه منها فينبغي للعاقل أن لا يأمن إلا من الجهة التي أمنه الله منها فإن قوله سبحانه هو الصدق الذي

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الصادق سبحانه وهذا الحذر إن ساعد القدر حينئذ ينفع فإنه ورد لا ينجي حذر من قدر إلا أن يكون ذلك الحذر من القدر حينئذ تكون به النجاة ولقد بالغنا في ذلك بقولنا.

يــــا حـــــذري مـــــن حـــــذري لـــو كـــان يـــغـــنـــي حـــذري

فأبلغ الحذر إنما هو في الحذر من الحذر أن يتخذه مستنداً ومن رحمة الله تعالى بنا أن حذرنا نفسه وأبلغ من هذا ما يكون فقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] ومن رأفته أن حذرنا نفسه فإنه من ليس كمثله شيء لا يعرف أبداً إلا بالعجز عن معرفته وذلك أن نقول ليس كذا وليس كذا مع كوننا نثبت له ما أثبته لنفسه إيماناً لا من جهة عقولنا ولا نظرنا فليس لعقولنا إلا القبول منه فيما يرجع إليه فهو الحي الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر عالم الغيب والشهادة الرحمٰن الرحيم الخالق الباريء المصور الحكيم بهذا وأمثاله أخبرنا عن نفسه فنؤمن بذلك كله عن علمه بذلك لا على تأويل منا لذلك فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينضبط لعقل ولا ناظر فما لنا من العلم به من طريق الإثبات إلا ما أوصله إلينا في كتبه وعلى ألسنة رسله المترجمين عنه ليس غير ذلك ونسبة هذه الأسماء إليه غير معلومة عندنا فإن المعرفة بالنسبة إلى أمر ما موقوفة على علم المنسوب إليه وعلمنا بالمنسوب إليه ليس بحاصل فعلمنا بهذه النسبة الحاصلة ليس بحاصل فالفكر والتفكر والمتفكر يضرب في حديد بارد جعلنا الله وإياكم ممن عقل ووقف عندما وصل إليه منه سبحانه ونقل، واعلم أن سفر الحذر يخرج صاحبه من المحسوس إلى المعقول ومن النعيم إلى العذاب ومن الستر إلى التجلي ومن الموت إلى الحياة القائمة بالأكوان التي تنتجها معرفتنا بالعالم ويؤدي إلى العلم بالنشأة الإنسانية ومن أين صدرت من حيث جسميته وبالحركة المستقيمة دون المنكوسة وإلا فقيه وإن عرفهما فبحكم التبعية ويعلم كل مقام يقتضي له الزيادة والشفوف على غيره والبصيرة في كل ما يبصره ويأتيه فله فيه تفكه ونعيم ويقف من هذا المقام بهذه الصفة على علم التوارث وفيماذا يقع وما الذي يورث وممن يورث ومن يرث ومن هذا السفر يعرف مشارق الأنوار ومطالع أهلة الأسرار فيحذرون من إدراك الصفات التي تغيبهم عن ذواتهم والنعيم بها إلا أنه تكون النجاة لهم عقيب هذا كله يحذرون منه ولو كان العدو ما كان من القوة فإنهم الغالبون بنصر الله فإنه سبحانه لا يقاوم ولا يغالب فإنه العزيز الرحيم وهذه الصفة إذا قامت بالعبد فإن الله يأخذ بيده في جميع أموره ويهديه إلى ما فيه نجاته وله من خرق العوائد المشي على الماء والنجاة من الأعداء أعداء الأرواح والبشر وهلاك الأعداء وينتج هذا السفر القرب الإلهي المقرون به سعادة الأبد وفي هذا المقام يأمن صاحبه في سفره فيه من كل ما يحذره من القواطع التي

تحول بينه وبين سعادته الأبدية ولو صال عليه جميع من الأرض عليهم وظهر عليهم ويحصل لصاحبه المتصف به من الكشف ما يقف به على غوامض الأسرار إذ كان نوره يقر كل شبهة وجهل ويبطل كل تمويه وزور ويورث النفس شجاعة وإقداماً وقوة فيفعل بالهمة ما لا يقدر على فعله بالإجرام ولا بالعدد غير أن صاحب هذا السفر يحصل له في أول دخوله فيه هلع طبيعي وضيق صدر وخوف لما يراه في أول طريقه من ضعف وقوة هذا المقام وهذا الضعف والذلة القائمة به تورثه العزة والقوة ويكشف له علم الظاهر والباطن فلا يخفى عليه شيء ويتولاه الله بنفسه في خروجه إلى الإرشاد والهداية فيكون معانا وتحصل له البشرى من الله حتى يأمن فيتوفر داعيته إلى التبليغ فإن الخوف مانع والجبن صارف غير أن الحق يؤيد صاحب هذا السفر تأييداً يعرفه ويأنس به ويركن إليه لا بد من ذلك ويعطي الحجة والقوة والظهور على خصمائه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين آمين